"اللغة والهوية"

في إطار محور تحديد أدوار اللغة العربية ووظائفها

في تشكيل هواية الطفل العربي

محمد عبده الزغير(*)

تنطلق الورقة من أن اللغة العربية ليست أداة للاتصال والفكر واكتساب المعرفة وحسب، بل لكونها مظهراً أساسيًّا للذاتية الثقافية العربية، ووسيلة لتعزيزها سواء بالنسبة للفرد أو الجماعة في ظل سمات المجتمع العربي المتنوع.

واسمحوا لي في البداية تناول مقاربة أولية حول اللغة إجمالاً ومن ثَم اللغة العربية، تمهيداً لاستعراض العلاقة بين اللغة والهوية والثقافة.

١) قراءة أولية في اللغة:

شكَّل سؤال "ما اللغة" اهتمامات الفلاسفة والمفكرين القدامى الذين تناولوا بالبحث الإجابة عنه ابتداء من أرسطو حتى ديكارت، وجاءت تأملات هؤلاء الفلاسفة لتضع البدايات الأولى للإجابة، ومع تطور مناهج العلوم لعدد من المجالات كعلم النفس والاجتماع والأنتروبولوجيا... وغيرها، تكشف عدد من الحقائق والمعارف العلمية المرتبطة باللغة، فمثلًا قدم علم النفس الفسيولوجي والعصبي توضيحات عن الأساس التشريحي، والوظائف العصبية التي تتدخل في الأداء اللغوي، وهكذا ساهمت بقية العلوم الأخرى في كشف العلاقة بين اللغة والظواهر السيكولوجية والاجتماعية وغيرها. وجاءت تكنولوجيا المعلومات، والهندسة الوراثية، لتضع اللغة على قمة الهرم المعرفي. وهكذا أصبحت اللغة رابطة العقد للخريطة المعرفية، والركيزة الأساسية لفلسفة العلم.

(*) خبير الطفولة بإدارة الأسرة والطفولة ـ جامعة الدول العربية.

obeikandl.com

وشكَّل التساؤل عن وظيفة اللغة هو الآخر اهتمام مختلف التخصصات العلمية، واشتركت في الإجابة عنه مجالات علمية عديدة.

ومع أنه جرى التعبير بأن وظيفة اللغة تتركز في نقل أفكار الفرد إلى الآخرين، إلا أنه برزت عدة نماذج لتوضيح وظائف اللغة، فالنموذج التقليدي الذي وصفه (بوهلر **Buhler**) كان يقتصر على ثلاث وظائف فقط، حددها في الوظيفة الانفعالية، والوظيفة الندائية، والوظيفة المرجعية، ويقابل هذا النموذج توصيف مثلث الزوايا أي المُرْسِل (المُتكلِّم)، والمُسْتقبِل (المُخاطَب)، و(الغائب) وهو الشخص أو الحدث أو الشيء الذي نتحدَث عنه.

وقد حاول هاليداي (**Hahallid**) تقديم حصر بأهم وظائف اللغة، وحددها في الآتي:

١ـ الوظيفة الفعلية (الوسيلية) (**Instrumental Function**)، وهي التي تسمح بإشباع الحاجات والتعبير عن الرغبات والحصول على الأشياء من البيئة المحيطة.

٢ـ الوظيفة التنظيمية (**Regulatory Functionr**) ـ وظيفة الحاجة، وهي تساعد في التحكم في سلوك الآخرين وتوجيه الأوامر والأفعال ـ وظيفة الفعل.

٣ـ الوظيفة التفاعلية (**Interpersonal Functiontin**)، وهي تُستخدم للتفاعل مع الآخرين في العالم الاجتماعي ـ وظيفة أنا وأنت.

٤ـ الوظيفة الشخصية (**Personal Function**)، وهي تساعد على التعبير عن الرؤية الفردية والمشاعر، وهنا يستطيع الفرد من خلال اللغة إثبات هويته وكيانه الشخصي ويقدم أفكاره للآخرين.

٥ـ الوظيفة الاستكشافية (**Heuristic Function**)، وبها يتم استخدام اللغة لاستكشاف وفهم البيئة المحيطة، وهي الوظيفة الاستفهامية.

٦ـ الوظيفة التخيلية (**Imaginative Function**)، وهي تسمح للفرد بعكس انفعالاته وتجاربه والترويح وإذكاء المشاعر.. وغيرها.

٧ـ الوظيفة الأخبارية (**Informative Function**)، وهي تسمح بنقل معلومات جديدة ومتنوعة إلى الأقران وإلى الأجيال المتعاقبة، ويمكن أن تكون ذات وظيفة تأثيرية إقناعية.

٨ـ الوظيفة الرمزية (**Symbolic Function**)، وهنا تمثل اللغةَ رموزٌ مشيرة إلى الموجودات في العالم الخارجي[١].

ويرى بعض الباحثين أن اللغة نظام رمزي يخدم أغراض التواصل. وهناك نظم رمزية أخرى، إلا أن اللغة مازالت أكثرها شيوعًا وتأثيرًا، وتتضمن وظيفة التواصل للغة نقطة اتصال بين اللغة والواقع أو الوجود غير اللغوي.

---

(١) انظر لمزيد من التفصيل جمعه سيد يوسف، سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، سلسلة كتب عالم المعرفة (١٤٥)، يناير ١٩٩٠، الكويت، ص ص ٢١ـ٢٦.

وهنا من المفيد الإشارة بمناسبة الحديث عن الوظيفتين اللتين حددهما هاليداي (التفاعلية والرمزية)، بأن اللغة احتلت دورًا هامًّا في الاتجاهات النظرية الحديثة في علم الاجتماع وتحديدًا مدرسة التفاعلية الرمزية، حيث تُعنى هذه المدرسة بالقضايا المتصلة باللغة والمعنى والرمز، وينوه مُنظِّرو هذه المدرسة بالدور الذي تؤديه التفاعلات بين الأفراد في خلق المجتمع ومؤسساته.

ويرى أحمد أبو زيد أن اللغة قديمة قدَم الإنسان، وأنها ظهرت بظهوره، وأن اللغة كانت ملازمة لظهور بقية ملامح الثقافة القديمةَ، مثل اختراع النار أو شطف الصوان، إن لم تكن أقدم منها.. وهذا هو الأغلب، لأن مثل هذه المظاهر الثقافية والاختراعات المختلفة لم تكن لتظهر لولا وجود اللغة التي هي أداة للتعبير والتفاهم.

إن اللغة بمعناها الدقيق تظل في رأي العلماء هي الأداة الرئيسة للاتصال والتفاهم وتبادل الأفكار خلال كل مراحل التاريخ والتطور، وبالتالي تكون هي أداة الثقافة والحضارة. فاللغة كغيرها من مظاهر الثقافة تتميز بخاصية التراكم والاستمرار والنمو والقدرة على الانتقال، والأكثر من هذا كله فإنها هي ذلك الجزء من الثقافة أو الحضارة، الذي يساعد أكثر من غيره على التعلم وزيادة الخبرة والمشاركة في خبرات الآخرين، سواء الخبرات الماضية أو الحالية. أي أنها العامل الأساسي في عملية التراكم التي هي أهم عنصر في الحضارة الإنسانية[٢].

ومع بزوغ عصر المعلومات تعاظم الدور الذي تلعبه القوى الرمزية. وعلى رأسها اللغة، في صياغة شكل المجتمع الإنساني الحديث. فالثقافة أصبحت محور عملية التنمية في مجتمع المعلومات، كما أكدت اللغة، بفضل المتغير المعلوماتي أنها محور منظومة الثقافة، حيث أصبحت معالجة اللغة آليًّا بواسطة الكمبيوتر هي محور تكنولوجيا المعلومات، خاصة أن اللغة هي المنهل الطبيعي الذي تستسقي منه هذه التكنولوجيا أسس ذكائها الاصطناعي، والأفكار المحورية بلغات البرمجة.

ولم يقتصر تعاظم دور اللغة في مجتمع المعلومات على مجالَي التربية والثقافة، فقد استحدثت اللغة لنفسها أدوارًا جديدة بعد أن تداخلت مع التكنولوجيا بصورة كبيرة، ليبرز دورها الاقتصادي والسياسي.

واللغة هي الذات وهي الهُويَّة، وهي أداتنا لكي نصنع من المجتمع واقعًا، وثقافة كل أمة كامنة في لغتها، وتُعد اللغة أبرز السمات الثقافية. وما من حضارة إنسانية إلا وصاحَبتها نهضة لغوية[٣].

(٢) أحمد أبو زيد، حضارة اللغة، في مجلة تحديات ثقافية ـ العدد ٢٦، خريف ٢٠٠٦، القاهرة، ص ص ٣٤ـ٣٦.
(٣) انظر: نبيل على، الثقافة العربية وعصر المعلومات، عالم المعرفة – العدد ٢٧٦، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر ٢٠٠١، ص ص ٢٢٨ـ٢٢٩.

واللغة العربية (بلا شك) هي أبرز ملامح ثقافتنا العربية، وهي أكثر اللغات الإنسانية ارتباطًا بالهوية، ويمكن القول إن اللغة العربية هي أساس الهوية العربية؛ حيث حافظت على استمرارية أمة عربية لها امتدادها الجغرافي وتاريخها المشترك، وأنها تمثل الثقافة التي تجانس بين العرب في مواجهة التحديات.

٢) جدل الهوية واللغة والعولمة:

ارتبط سؤال الهوية بظاهرة التغير التي شهدها عالمنا ومجتمعاتنا العربية، كما يعد واحدًا من المخاوف والأسئلة والأحكام التي ارتبطت بظاهرة العولمة وتأثيراتها. ولعله من المفيد أولاً مناقشة المفاهيم الآتية:

أـ مفهوم الهوية: على الرغم من أن مصطلح الهوية ذو تاريخ طويل، إذ انه مشتق من الجذر اللاتيني **Idem** الذي يدل على التوحُّد والاستمرارية، إلا انه لم يصبح متداولاً إلا خلال القرن العشرين فقط.

واسم الهوية في اللغة ليس عربيًّا في أصله وإنما اضطر إليه بعض المترجمين.

ويلاحظ أن فلاسفتنا العرب القدامى (الفارابي، الكندي، ابن رشد، ابن سينا) قد استعملوا لفظ هوية، المنحوتة من الضمير (هو) بوصفه مقابلاً للفظة "أستين" في اليوناني للدلالة على وجوه المعنى الذي أقره أرسطو لمفهوم الوجود[٤].

ويشير مجدي عبد الحافظ إلى أن مفهوم الهوية مفهوم غربي لم تعرفه لغتنا العربية إلا حديثًا، وإن بداية انتشار مفهوم الهوية يعود إلى الفكر العربي الحديث مع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، في غمار الترجمات التي بدأت تتراكم، ومع بداية استخدام مصطلح (الجامعة العربية) لدى أديب إسحاق، ويشير إلى أن أول من استخدم مصطلح الهوية هو سلامة موسى نقلها عن إبراهيم اليازجي، وهو واحد من منظومة المصطلحات (الحرية، والأمة، والقومية، والمساواة، والوطن، والوطنية، والثورة... إلخ)، التي شارك سلامة موسى في التعريف بها، إذ كانت تعبر عن ديناميكية الحراك الاجتماعي في الغرب، وحركة الصعود المجتمعي غير المسبوقة، خاصة بعد ظهور الدول القومية والحدود السياسية الفاصلة بين الدول[٥].

ويرى كثيرون من الباحثين صعوبة في تعريف الهوية، وارتبطت هذه الصعوبات لأن لفظة

(٤) انظر: فتحي المسكيني، الهوية والزمان تأويلات فينومينولوجيا لمسألة النحن، دار الطليعة، بيروت، ص ص ٩ـ١٢.

(٥) مجدي عبد الحافظ، الهوية مفهوم في طور التشكل، في العولمة والهوية الثقافية، سلسلة أبحاث المؤتمرات (٧)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص ٣٩٧ـ ٤٠١.

(الهوية) "حَمالة أوجه"، فهي تُقال على معان عدة، كما أنها شهدت تغيراً طرأ على معناها فلم تعد منذ انبلاج العصر الحديث ترتبط بدلالات أنطولوجية، بل أضحت مفهومًا ابستمولوجيًّا وأنتروبولوجيا، كما أن التطور الدلالي لها أعطاه البعد الاجتماعي، فالهويات تُكتسب عبر التنشئة الاجتماعية، وهى تُنتج ويُعاد إنتاجها خلال التفاعل السوسيولوجي.

كما ترتبط بالهوية موضوعات عديدة بدرجة عالية من التعقيد لما تتضمنه الهوية من تشعبات داخليه يثير منها مزيداً من التساؤلات. وتتداخل هنا الافتراضات المختلفة حول أي المقومات، عرقية، دينية، لغوية، إثنية ومُواطَنة لها شرعية تشكيل هوية ما.

وكذلك، فإن الاختلاف في مقارنة مفهوم الهوية يتعدد أيضًا باختلاف الفروع المعرفية التي تتم مقارنتها وفقًا لها (الفلسفة، المنطق، التاريخ، علم الاجتماع، علم النفس، السياسة، الأنتروبولوجية ـ وغيرها).

ويتناول الباحث هنا بعض التعريفات التي يرى أنها تتفق مع هدف الورقة، ومنها رأي د. سعد الدين إبراهيم أن "الهوية تنطوي في الأساس على معان رمزية وروحية وحضارية جماعية تعطى الفرد الإحساس بالانتماء إلى جسم أكبر، وتخلق لديه الولاء والاعتزاز بهذا الجسم الأكبر"[٦].

ويشير عبد الحافظ للهوية بارتباطها بالمعاصرة، حيث يشير إلى أن "الهوية هي مجموعة القيم والعناصر والسمات التي تجمعت عبر العيش في مكان وزمان واحد، ورسخت إلى حد ما، بعد أن تفاعلت فيما بينها، وتفتق عنها شكل أخير وليس نهائيًّا، وهو ما يميز مجموعة اجتماعية ما، تشعر فيما بينها بشرف هذا الانتماء. والموقف من الهوية موقف معاصر يرتبط بوجودنا وخياراتنا ومصالحنا الآنية"[٧].

ويأتي في هذا السياق تعريف الهوية الثقافية **Cultural Identity** التي حددها ثروت إسحق بأنها تشير إلى وعي الشعب بذاته وإلى تمايز ثقافته عن الثقافات الأخرى؛ حيث يتبلور هذا حول تاريخ وجغرافية المجتمع وخصوصيته الاجتماعية والاقتصادية، ولا ينفي هذا وجود هوية ثقافية فرعية ترتبط بالدين والمجتمع المحلي والبيئة المحلية الخاصة بالمنطقة التي يعيش فيها الفرد مع أسرته وأقرانه[٨].

---

(٦) سعد الدين إبراهيم، التعصب والتحدي الجديد للتربية في الوطن العربي، في: الأطفال والتعصب والتربية: احتمالات الانهيار الداخلي للثقافة العربية المعاصرة، الكتاب السنوي السادس، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، ١٩٨٩ الكويت، ص ٢٥.

(٧) مجدي عبد الحافظ، مرجع سبق الإشارة إليه، ص ص ٤٠٦.

(٨) ثروت إسحق، تحديات الهوية الثقافية للأطفال، في وثائق مؤتمر الطفل العربي في مهب التأثيرات الثقافية المختلفة، ٢٥ـ٢٧/ ٩/ ٢٠٠٥ بمكتبة الإسكندرية، ص ٧.

وتتضمن الهوية كثيراً من العناصر المعروفة، كاللغة والتراث والماضي المشترك والآمال المشتركة، كما لا يمكن إنكار الدين بوصفه مؤثراً ثقافيًّا ومعنًى حضاريًّا، فضلاً عن الوعي بالقيم الفكرية والتشكيلة الاجتماعية المتطورة، ونلاحظ أن عنصر اللغة هو من أهم عناصر الهوية، وكلما زادت التحديات ضد الأمة، زاد الاهتمام باللغة على أنها العامل المشترك للجماعة.

والهوية لا تبقى منفصلة عمَّا يجري في العالم، فهي تدخل مباشرة في تفاعل مع ما هو إقليمي وقومي وعالمي. وتزداد درجة التفاعل تلك بارتفاع المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي للشعب حامل الهوية.

وتتحدد الهوية في مجموعة من المقومات الأساسية المتجسدة في:

أ) اللغة الوطنية، واللهجات المحلية المرتبطة بوجود شعب ما، وتطوره ومصيره.

ب) القيم الدينية والوطنية المتكونة عبر العصور والتي تكسب الشعب أو الجماعة حصانة دون ذوبانه في جماعات أخرى.

ج) العادات والتقاليد والأعراف النابعة من تلك القيم أو الحاملة لها.

د) التاريخ النضالي الذي ينسجه ذلك الشعب من أجل الحفاظ على هويته أرضًا وقيمًا وعادات وتقاليد وأعرافًا [٩].

وتشير أدبيات الفكر القومي العربي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، إلى عدد من المصطلحات التي تتداخل وتتشابك مفهوماتها للتعبير عن هوية المنتمين إلى هذه المنطقة من العالم. لقد طُرحت في ذلك مصطلحات عدة، مثل: الرابطة الشرقية، والجامعة الإسلامية، والقومية العربية، التي نشأ الجدل حولها، في منتصف القرن العشرين ليستقر باسم القومية العربية، وهي الدعوة إلى الوحدة القومية من أجل الحفاظ على مصالح الأمة العربية[١٠].

وبغض النظر عن مدى نجاح هذا الفكر أو فشله في التعبير عن نفسه، إلا أن ما يهمنا الإشارة إليه من هذا العرض السابق هو التأكيد على أن اللغة العربية أدت دوراً توحيديًّا عميق الأثر بين الشعوب العربية خلال العصر الحديث. وبهذا الصدد يشير د. حليم بركات حول دور اللغة العربية في تكوين الأمة بأن اللغة العربية ليست مجرد وسيلة تخاطب ونقل الثقافة من جيل إلى آخر، كما أنها ليست مجرد وعاء يختزن رؤيتنا وأفكارنا ومشاعرنا ومعتقداتنا وتراثنا، وإنما هي تجسيد في ذاتها للحضارة والثقافة [١١].

---

(٩) لمزيد من التفصيل، انظر: ياسر سليمان، اللغة العربية والهوية القومية، صفحة المعرفة في الجزيرة نت *www.aljazeera.net*.

(١٠) لمزيد من التفصيل انظر: عفت الشرقاوي، المصادر الفكرية لمفهوم الهوية لدى رواد الفكر القومي العربي، في الهوية القومية في الأدب العربي المعاصر، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٩٩، ص ص ١٣ ـ ٤٢.

(١١) حليم بركات، المجتمع العربي في القرن العشرين.. بحث في تغير الأحوال والعلاقات، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠، بيروت، ص ٦٨.

ويركز دارسو القومية ممن يتبنون أهمية اللغة على أن اللغة أهم أدوات العملية الاجتماعية وأدوات صناعة الإنسان، فاللغة هي الواسطة التي تجعل من الأمة "مجتمعًا متخيلاً"، وتربط الفرد في وقت وحيز اجتماعي معين مع أبناء أمته ممن لم يرهم أو يقابلهم، ولكن هذا لا يمنع وجود من يقلل من أهمية اللغة أو يعدها مجرد عامل بين عوامل أكثر أهمية [١٢].

٣) مفهوم العولمة:

يعرِّف د. إسماعيل صبري العولمة بأنها " التداخل الواضح لأمور الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة والسلوك دون اعتداد يذكر بالحدود السياسية للدول ذات السيادة أو الانتماء إلى وطن محدد أو لدولة معينة دون حاجة إلى إجراءات حكومية. "[١٣]، ويتفق د. برهان غليون بشأن آلية التوحيد التي تفرضها العولمة فيرى أنها تعنى خضوع البشرية لتاريخية واحدة، أي أنها تجرى في مكانية ثقافية واجتماعية وسياسية موحدة أو في طريقها للتوحيد[١٤].

وبتحليل عملية العولمة يمكن استخلاص توجهاتها وتأثيراتها في عدد من المناحي والاتجاهات، وما يهمنا هنا التركيز على الأبعاد الثقافية، والتي تتبدى في التالي:

- بلورة ثقافة عالمية تتسم بسمات خاصة تستفيد منها الفئات المسيطرة على العمليات الاقتصادية والسياسية والإعلامية، ولا شك أن ذلك من شأنه تشكيل الوعي الثقافي وفرض النماذج والفلسفات الغربية.
- تراجع دور العملية الثقافية والاجتماعية في المجتمعات التقليدية والنامية، مما يجعلها عُرْضة للتأثيرات الخارجية.
- إحياء الثقافات المحلية (ثقافات الأقليات)، والبدء في بلورة ثقافة عالمية على حساب الثقافة الوطنية، ولا شك أن حركات التطرف بكل أشكالها هي نتاج لآليات الهيمنة الرأسمالية وتشجيعها لإعادة هذه الثقافات المحلية المتعارضة.

ومع أنه من المفترض أن العولمة تؤدي إلى التوحيد لا إلى التفكك، إلا أن الشواهد التاريخية تبرز عكس ذلك تمامًا، حيث ظهرت النزعات القومية كرد فعل لعملية العولمة، ودفاعًا عن الهوية والانتماء الوطني، أو دفاعًا عن مصالح قومية، أو دفاعًا عن انتماء ديني ناتج عن الاختراق الثقافي[١٥].

---

(١٢) ياسر سليمان، مرجع سبق الإشارة إليه، ص ٢.

(١٣) إسماعيل صبري عبد الله، الكوكبة أساس الظاهرة الاقتصادي الاجتماعي، في العولمة والهوية الثقافية، مرجع سبق الإشارة إليه، ص ٩٩.

(١٤) برهان غليون، سمير أمين، ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، حوارات لقرن جديد، دار الفكر، دمشق ٢٠٠٠، ص ص ٢٠ –٢١.

(١٥) انظر: أحمد مجدي حجازي، العولمة وآليات التهميش في الثقافة العربية، العولمة والهوية الثقافية، مرجع سبق الإشارة إليه، ص ص ١٥٠ – ١٥٣.

ومن هنا ارتبط سؤال الهوية بعملية العولمة باعتباره القضية المحورية والهاجس الدائم في أي معالجة لسيرورة العولمة؛ خاصة وأن البعض يرى العولمة وكأنها مخطط أو استراتيجية محددة تم تخطيطها وتنفيذها بوعي وقصد بهدف اجتياح بقية العالم، وتهديد الثقافات المحلية والقومية الأخرى. وهذا ما يجعل حضور وصعود سؤال الهوية عادياً لمواجهة تسارع التحولات التي يعيشها العالم الذي تحول فعلياً إلى قرية كونية صغيرة مع التقارب وتهاوي الحدود بسبب دور التكنولوجيا في الاتصال والمواصلات وحركة العمليات التجارية، بالإضافة إلى تعميم قيم ومبادئ سياسية وقانونية ودستورية مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان وغيرها، وكذلك انتشار أنماط في السلوك والمظهر والثقافة عموماً ذات مصادر ومرجعية غربية أو حتى أمريكية[١٦].

كل هذا يجعل سؤال مدى تأثير العولمة على الهوية أو الثقافة الوطنية، سؤالاً مشروعاً للبحث، وفي هذا الاتجاه برزت عدة آراء حول العلاقة بين العولمة والهوية. ومن هذه الآراء الآتي:

أ) رأي يناقش العلاقة في إطار فهم الهوية كمفهوم متغير وليس ثابت، وبأنه مصطلح سياسي أو إيديولوجي، ومن هنا يحاول التركيز على تاريخية ونسبية الهوية وعدم الإقرار بثباتها، مما يعني عدم التفاعل بنظرية المواجهة بين العولمة والهوية، كما أن نسبية الهوية تجعلها مرنة قد تتعايش أو تُقتبس من ثقافات أخرى، بل قد تساعدها عوامل التقارب وسقوط الحواجز على تفاعل إيجابي وخلاق مع العولمة.

ب) ورأي يرى بحدود الهوية وثباتها، وبالتالي ينظر لأي تغيير قادم في إطار الغزو الثقافي والاختراق لتلك الهوية وتفكيكها.

ج) واتجاه يرى العولمة في عدم تعارضها مع الهوية، وفي علاقتها التفاعلية والتكاملية، أي النظر إلى العولمة باعتبارها عملية لبلورة العالم في مكان واحد وأن يفضي ذلك إلى ظهور حالة إنسانية عالمية (هوية كونية). وهذه الحالة الإنسانية لا يُفترض فيها التعارض مع الهوية أو الهويات، وعدم تذويبها قسرياً.

وهنا يشير د. عبد الهادي الجوهري إلى أن أخطر آثار العولمة هو ما يتصل باقتحامها للبنَى الثقافية والحضارية لشعوب العالم تحت دعوى التوحيد الثقافي. إن ذلك يؤدى إلى تصدع الهوَية الثقافية في بلدان العالم التي تتأثر بالعولمة. وقد يحدث عن هذا ما يُسمى بالصراع القيمي بالإضافة إلى إضعاف مشاعر الانتماء، ولما لذلك من تأثير في تشرذم المجتمع وصراعه وتفككه[١٧]. ومما يساعد على ذلك حالة الثقافة في بعض المجتمعات الأقل تطوراً.

---

(١٦) انظر: حيدر إبراهيم على، العولمة وجدل الهوية، مركز الدراسات السودانية، سلسلة الثقافة السياسية (٣)، ط١، القاهرة ٢٠٠١، ص ص ٦٠ـ ٧٠.

(١٧) عبد الهادي الجوهري، العولمة والانتماء الوطني (حالة مصر)، في العولمة وأثرها في المجتمع والدولة، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية (ط١)، أبو ظبي، ٢٠٠٢، ص ص ١٣٩ – ١٤٠.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن هناك من المفكرين العرب من ركزوا على العوامل الذاتية مثل د. تركي الحمد الذي يرى أن إشكاليتنا الثقافية الدائرة حول هاجس الهوية، والنقاء الثقافي هي إشكالية ذهنية مُبالَغ فيها، ونوع من آليات الدفاع النفسي الجماعي المستفَزة بحالات الإحباط والفشل وعدم القدرة على التوافق مع تحولات المكان والزمان بغرض إعطاء نوع من التوازن للذات المنجرحة، حتى وإن كان ذلك على حساب الواقع المعطى وتجاهله، بوعي أو بدون وعي. ويرى أيضًا أن هذه الإشكاليات الثقافية المفترضة هي هاجس نخبوى خاص، قبل أن يكون همًّا اجتماعيًّا معًا، ويقترح لذلك تعديل المعادلة الثقافية بين النص النظري والفعل الاجتماعي، والعمل على جعل ثقافتنا قادرة على التفاعل مع المتغيرات المحيطة والتنافس معها [١٨].

ومع التقدير لهذه الآراء التي ترى في سؤال الهوية هاجسًا أو وهمًا لحالات الفشل العربي في الانخراط مع متغيرات العصر، إلا أنه لا يمكننا إغفال أن الهوية لا تنجو من التأثر بالعولمة، ويمكن هنا تحديد بعض التأثيرات كالتالي:

- على مستوى اللغات واللهجات التي ستتراجع أمام اللغات الحية المعتبرة، ما لم تكن اللغة المعبرة عن الهوية إحدى تلك اللغات الحية، وتحتل إلى جانبها صدارة التطور.
- على مستوى القيم الدينية والوطنية التي ستكون مهددة بقيم وافدة ستصارعها في ثوابتها، وأيضًا على مستوى العادات والتقاليد والأعراف التي قد تحل محلها عادات وتقاليد وافدة لا علاقة لها بالهوية المحلية.
- على مستوى التاريخ النضالي للشعب حامل الهوية الذي قد يتعرض إلى التشويه المُمَنهج [١٩].

وتمتد تأثيرات العولمة لتشمل أهم رمز بنائي لثقافتنا العربية وهي اللغة، وهنا يشير د. سليمان العسكري إلى أن العولمة الحديثة استطاعت أن تدخل كل بيت، لذا فهي تترك أثرها المباشر في نفوس الأطفال الصغار وهم مازالوا داخل جدران بيوتهم، كما أن منتجات العولمة ومؤسساتها تكون في انتظارهم خارج عتبة البيت، ولم يعد هناك مفر من أن تتأثر لغة الطفل وهي في مرحلة تكُّونها الأولى، بهذا الطوفان الهائل الذي أصبحت العولمة تحمله إليه، ولخص تأثيرات العولمة في المجال اللغوي فيما يلي:

أ) غلبة ثقافة الصورة على ثقافة الكلمة.

(١٨) تركي الحمد، نحو إطار معرفي جديد للثقافة العربية، في مستقبل الثقافة العربية، مؤتمر مستقبل الثقافة العربية ١١ – ١٤ مايو ١٩٩٧، مكتب القاهرة، ص ص ٤٣ – ٤٤.

(١٩) محمد الحنفي، الهوية والعولمة، موقع المعرفة، الجزيرة نت *www.aljazeera.net*

ب) ثقافة الشبكة العنكبوتية بديلاً عن الصفحات الورقية.

ت) تأثير المدارس مزدوجة اللغات وإزاحتها للمدارس القومية.

ث) طريقة التلقين في دراسة اللغة العربية، وأيضًا اللغة الإنجليزية [٢٠].

ويرى جلبير غرانفيوم أن الصلات القائمة بين اللغة والثقافة والهوية متداخلة، فاللغة كما يراها لا تصلح للتواصل، بل تصلح للوجود، وهذا يبين العلاقة العميقة بين اللغة والهوية. كما أن اللغة ـ شأنها شأن الثقافة ـ تمثل بالنسبة للفرد واقعًا مزدوجًا. فهي من جهة القانون الذي يفرض نفسه على كل فرد خلال عملية التنشئة الاجتماعية التي تقوده إلى الانتقال "من الطبيعة إلى الثقافة". فالطفل لا يمكنه أن يرسخ قدمه في السجل الرمزي والاندماج في المجتمع والحصول على هوية، إلاَّ إذا أدى مقابلاً يتمثل في التضحية بقسط من فردانيته. وبعد ذلك ستعترف به الجماعة باعتباره عضوًا كاملاً فيها عبر اللغة (الثقافة) وخضوعه لحسن التصرفات، وبواسطة الضبط الذي يمر عبر اللغة والثقافة، يضطر الإنسان عبر التنشئة الاجتماعية إلى الخضوع إلى قانون اللغة مقابل الحصول على الهوية.

وهناك نقطة أخرى مشتركة بين اللغة والثقافة في هذا التحويل للإنسان إلى "إنسان مثقف" تتمثل في أن اللغة لا تنقل سائر هذه التعليمات والشفرات (Codes) وحسب، بل تتضمنها أيضًا وتعكسها في حقولها الدلالية وبنياتها النحوية المرتبطة على الخصوص بعالم التمثلات التي تضفي عليها هالة.

واللغة التي يسمع الطفل فيها كلمة أمه ثم كلمة محيطه، تشكل بالنسبة إليه ذلك التجذر الأساس أو الهوية التي تعترف له بها أمه أو محيطه. وهذه اللغة هي التي (تطبع) الفرد مدى الحياة، غير أن المراحل اللاحقة (تُجَمْعنُ) هذه اللغة الأم لتصير لغة للجماعات المتعاقبة التي تفرض قانونها على الفرد وتتبناه باعتبارَه عضوًا فيها.

وهكذا تتداخل اللغة والثقافة، في عملية التنشئة الاجتماعية للفرد باعتبارهما ضابطين أو قانونين يأتيان لتأطير الفرد ومنحه في المقابل هوية تُدرَك بعبارات التماهي مع الوسط الذي يقبل هذا الفرد لغته واستعمالاتها[٢١].

وارتباطًا بالوسط الاجتماعي للغة سيتم تناول جانب آخر مرتبط بالأبعاد المتعددة لهذا الوسط، والذي نقصده هنا هو العالم العربي.

---

(٢٠) سليمان العسكري، عندما تتهشم الحروف. العولمة وتأثيرها على لغة الطفل العربي، مؤتمر الطفل العربي في مهب التأثيرات الثقافية المختلفة، مكتبة الإسكندرية ٢٥ – ٢٧ سبتمبر ٢٠٠٥، المجلس العربي للطفولة والتنمية، القاهرة، ص ص ٧ – ١٣.

(٢١) جلبيرغرانفيوم، اللغة والهوية والثقافة الوطنية في المغرب العربي، موقع *www. Mokarabat.com*.

أبعاد التنوع الثقافي المتعدد في المنطقة العربية:

يُعد العالم العربي واحداً من أكثر مناطق العالم خصوبة من حيث تكوينه الاجتماعي، وتلك الظاهرة أسهمت في تكوينها ثم في ترسيخها مجموعة متظافرة من العوامل تتعلق بكونه مهبط الديانات السماوية الثلاث، وتمتعه بموقع وسط للقارات الثلاث، وجملة من العوامل التاريخية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية الأخرى.

ويرى د. علي ليلة أن المنطقة العربية تتميز بخاصية تجانس ثقافتها العربية بناء على ثلاث متغيرات أساسية ساعدتها في ذلك، وتلعب اللغة العربية (المتغير الأول) دوراً رئيساً في أساس تماسكها، حيث تُعد اللغة العربية هي اللغة الرئيسة والسائدة على الصعيد العربي جملته، يتحدث بها الجميع ويدرك عمق الانتماء لها، وتدرك الجماعات الأخرى التي تتحدث لغات أخرى فرعية أن لغاتها الخاصة هي اللغة الثانية بعد اللغة العربية.

ويتمثل المتغير الثاني في تجانس الثقافة العربية في التراث الديني للمجتمع العربي، إسلامياً كان أم مسيحياً، من حيث إن الديانتين اللتين انتشرتا في العالم العربي تميزتا بكونهما ديانات كتابية ومصدرها واحد وجذرها واحد، وكل ديانة من هاتين الديانتين تحمل في جوهرها اتجاهاً إيجابياً نحو الديانة الأخرى، الأمر الذي دفع إلى تعايشهما طيلة التاريخ الماضي، وتضافرهما معاً في تأكيد وحدة المجتمع وتماسكه. كما أن الديانات والمِلَل والنِّحَل المتفرعة التي توجد في المنطقة تضافرت هي الأخرى في الحفاظ على تماسك المجتمع وتجانسه، مع التأكيد بوجود تناقضات واختلافات جزئية هنا أو هناك. ويشكل الميراث الثقافي للمجتمع الذي انحدر من أجيال الماضي، المتغير الثالث، والذي يتضمن منظومة قيم وأعراف وتقاليد ومعايير طورها التراث الثقافي لضبط التفاعل الحادث في المجتمع في كل مرحلة، الذي يحفظ للثقافة تجانسها وتماسكها [٢٢].

وهذا التجانس لا ينفي أن بين مجتمعاتنا العربية تنوعاً ثقافياً وعرقياً وطائفياً كبيراً لمجموعات غير عربية أو غير مسلمة، عاشت آلاف السنين في المجتمعات العربية، وساهمت بفاعلية في إثراء الثقافة العربية، وهو ما يتطلب مراعاتها والعمل على تحويل التنوع الثقافي للفئات المكوِّنة للمجتمع إلى مصدر قوة يعزز روافد الثقافة العربية ويرسخ التماسك بالديمقراطية والتعددية.

وبنظرة عامة للمنطقة العربية نجد أن المجتمع العربي يتصف بالتعددية الاجتماعية أو شدة التنوع من حيث الانتماءات التي جعلت عالمنا الجليل د. حليم بركات يطلق على مجتمعاتها بالفسيفسائية في تركيبها وهويتها. وشكَّل هذا التنوع والاندماج والتجانس أساس مرونة

(٢٢) لمزيد من التفصيل انظر: علي ليلة، الوضع الثقافي العربي.. متغيرات القياس والإصلاح، منتدى الإصلاح العربي، مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٦، ص ص ٢ – ٣.

المجتمعات العربية، وهو ما جعلها تميل للتكامل في هويتها الثقافية رغم التنوع الشديد في بعض المجتمعات.

ويشير حليم أيضًا إلى أنه في إطار بحث التنوع والتجانس في الهوية العربية، هناك عوامل للوحدة التي تتشكل على أساسها الهوية، وتشمل اللغة والثقافة والتجارب التاريخية المشتركة، وهناك من يرى عوامل أخرى مثل المصالح والأوضاع الاقتصادية.

وتبرز أيضًا بعض عوامل التجزئة كالهويات القطرية، والانتماءات الفئوية (قَبَلية، طائفية، عرْقية، محلية) وغيرها من العوامل التي عززتها القوى الاستعمارية أثناء احتلالها لمناطق العالم العربي، أو المبادرات الحديثة المقدمة كبدائل للعروبة والأمة العربية، مثال مشروع الشرق الأوسط الجديد أو الكبير.. وغيرها [٢٣].

وبصدد الإشارة إلى عامل اللغة في مسألة التنوع والتجانس، صنَّف د. سعد الدين إبراهيم الجماعات في المجتمع العربي بحسب بعدين أساسيين، هما: الشعور بالانتماء العربي، والتحدث باللغة العربية كلغة أم، فتوصل إلى أن هناك أربع مجموعات:

١) الجماعة الرئيسة: التي تمثل أكثرية سكان العالم العربي، والتي يتكلم أفرادها اللغة العربية ويشعرون بالانتماء إلى الجماعة العربية.
٢) الجماعات التي تتكلم العربية ولكنها لا تشارك العرب حسهم القومي.
٣) الجماعات ذات الانتماء العربي ولكنها لا تتكلم العربية.
٤) الجماعات التي لا تتكلم العربية ولا تحس بالانتماء العربي [٢٤].

وعند استعراض التجانس الثقافي والإشارة إلى أن جماعات العالم العربي تميل إلى التكامل في هويتها الثقافية، لا يعني هذا إطلاقًا التماثل والتطابق كأقطار أو شعوب أو جماعات ثقافية وغيرها.

إن حرية الاختلاف واحترامه الذي تجسد على مرور الزمن في الثقافة العربية، يتفق أساسًا مع روح الإعلان الصادر عن اليونيسكو حول التنوع الثقافي، الذي أكد على تنوع الثقافات والتسامح، والحوار، والتعاون.. وغيرها من القيم.

---

(٢٣) انظر لمزيد التفصيل، د. حليم بركات، مرجع سبق الإشارة إليه، ص ص ٢٤ – ٣٢.

(٢٤) تطور هذا التصنيف الذي قدمه سعد الدين إبراهيم في مقالاته "نحو دراسة سوسيولوجية للوحدة العربية.. الأقليات في العالم العربي، في قضايا عربية، السنة ٣، الأعداد (١ ـ ٦) أبريل ـ سبتمبر ١٩٧٦، ص ص ٥ ـ ٢٤، وبرزت إضافات تفصيلية لأرقام حديثة، يقدمها التقرير السنوي لمركز ابن خلدون حول الملَل والنِّحل والأعراق في الدول العربية.

وبالقدر الذي يُؤمَّل فيه تعزيز الهوية العربية لمواجهة تحديات العولمة، فإن ذلك يتطلب أيضًا وبالضرورة مراعاة واحترام هويات الثقافات الفرعية، وثقافات الأقليات الإثنية والجماعات المختلفة والعادات والتقاليد، بل والسعي إلى إتاحة الفرص لها لممارسة لغتها وتقاليدها وشعائرها الدينية، وفتح حوارات ديمقراطية وعقلانية بشأن القضايا والخيارات الوطنية.

إن التنوع الاجتماعي والثقافي لدول المنطقة ينبغي أن يعكس تعددية ثقافية منفتحة تحترم قيمة الإنسان وتسمح له بالتعبير عن نفسه، وبالإبداع في أعماله، ونشر هذه الأعمال باللغة التي يختارها، وخاصة لغته الأصلية، وتمكينه من المشاركة في الحياة الثقافية، وممارسة تقاليده الخاصة في الحدود التي يفرضها احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية.

وعلى المؤسسات الثقافية العربية (الرسمية والأهلية) تقع مسئولية كفالة التداول الحر للأفكار، سواء عن طريق الكلمة أو الصورة، والعمل على تمكين كل الثقافات من التعبير عن نفسها، والتعريف بنفسها، ذلك أن حرية التعبير، وتعددية وسائل الإعلام، والتعددية اللغوية، والمساواة في فرص الوصول إلى أشكال التعبير المختلفة، وإتاحة الفرص لجميع الثقافات في أن تكون حاضرة ـ هي كلها ضمانات للتنوع الثقافي، والأساس الحصين لمنع تفكيك الهوية العربية والهويات المختلفة في المنطقة العربية.

إن ضمان حقوق الإنسان في العالم العربي هو الأساس المنيع لتجاوز التجارب الفاشلة وأخطاء الماضي، ومنها نستمد شرعية تعزيز ثقافتنا وهويتنا العربية.

٤ – ملامح توجهات لتأكيد هوية الطفل العربي:

أتاح الاستعراض السابق الوقوف على أن اللغة تُعد عنصرًا أوليًّا ومكاملاً للثقافة، وتبدو الفاعل المحرك لثقافة الفرد، أي لتنشئته الاجتماعية وإكسابه الهوية الاجتماعية.

ووفقًا لتعريف أنتوني غدنز أن الثقافة تعني جوانب الحياة الإنسانية التي يكتسبها الإنسان بالتعلم لا بالوراثة، ويشترك أعضاء المجتمع بعناصر الثقافة تلك التي تتيح لهم مجالات التعاون والتواصل. وتمثل هذه العناصر السياق الذي يعيش فيه أفراد المجتمع.

تتضح أهمية التنشئة الاجتماعية باعتبارها العملية التي يتعلم بها الأطفال والأعضاء المستجدون في المجتمع، أساليب الحياة في مجتمعهم كونها الوسط الأول والقناة الأساسية التي يجري فيها نقل الثقافة وانتقالها على مدى الأجيال.

وتمر التنشئة الاجتماعية بمرحلتين عريضتين، وتشمل عددًا من العوامل الفاعلة المؤثرة في التنشئة، وتشتمل هذه العوامل الفاعلة على الجماعات أو السياقات الاجتماعية التي تجري فيها

عملية التنشئة المهمة. وتجري التنشئة الاجتماعية الأوَّلية في مرحلتَي الرضاعة والطفولة، وتُعتبر هذه هي الفترة التي يصل فيها التعلم الثقافي أقصى درجات الكثافة. إذ إن الأطفال يتعلمون فيها اللغة وأنماط السلوك الأساسية التي تشكل الأساس لمراحل التعليم والتعلم اللاحقة. وتكون العائلة هي الفاعل المؤثر الأبرز والأكثر أهمية في هذه الفترة، أما التنشئة الثانوية فتحدث في فترة لاحقة من الطفولة، وتستمر حتى سن البلوغ، وتدخل في هذه المرحلة عوامل فاعلة أخرى تتولى بعض الأدوار والمسئوليات التي كانت تقوم بها العائلة. ومن جملة هذه العوامل: المدارس، وجماعة الأقران، والمؤسسات، ووسائل الاتصال والإعلام، وغيرها. وفي هذه السياقات كلها تسهم التفاعلات الاجتماعية (للغة دور مهم) في تعليم الفرد منظومات القيم والمعايير والمعتقدات التي تشكل الأنماط والعناصر الأساسية في الثقافة [٢٥].

إن التنشئة الاجتماعية (**Socialization**) توصف بأنها العملية التي تتشكل خلالها معايير الفرد ومهاراته ودوافعه واتجاهاته وسلوكه، لكي تتوافق مع تلك التي يعتبرها المجتمع مرغوبًا فيها، ومستحسنة لدوره الراهن أو في المستقبل، كما أنها من أهم العمليات الاجتماعية، فهي تحول الطفل من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي، وهي مهمة للطفل لأنها الوسيلة التي تمكنه من تحقيق النمو والنضج الاجتماعي، وهي أداته في الانتماء الاجتماعي ومرجعه في تكوين علاقات مع الآخرين، ثم إنها في حالة نجاحها وسيلة لوقايته من مظاهر التأثيرات والسلوك المنحرف.

وفي ضوء المتغيرات الحادثة، فإن التنشئة دخلت في عملية متزايدة التشعب والتعقيد؛ حيث يتعاظم دور القوى والمؤثرات غير المقننة (مثل الإعلام الفضائي وانفجار كثافة التفاعلات الاجتماعية على اختلافها، وقواعد المعلومات وانتشارها المتسارع)، وتطرح العولمة كما سبقت الإشارة لها، وتأثيراتها المختلفة تحديات، تتطلب إعداد خيارات أساسية على صعيد التنشئة وتوجهاتها.

إن التحديات المتفاعلة التي تمثل الإشكالية المطروحة على المجتمع العربي، لا بد أن يتم التعامل معها من خلال حلول ذات مقومات متفاعلة بدورها تشكل نوعًا من نظام الاستجابة، وتتمثل نواة هذه الحلول في بناء القدرة على صعيد تنشئة الطفولة ورعايتها، وتتكون القدرة بدورها من محصلة قوى الحصانة الذاتية (الفردية والجماعية) وقوى الفاعلية (في التعامل مع التحديات).

يتناول بناء الحصانة متعدد الأبعاد: الحصانة الوطنية، وحصانة الهوية، والحصانة الصحية، والحصانة النفسية والحصانة القيمية. أما بناء الفاعلية فيتمثل في تربية الخبرات والقدرات المعرفية والتكيفية. وكلا الأمرين متكاملان؛ حيث لا فاعلية بدون حصانة. كما لا قيمة للحصانة المغلقة،

(٢٥) انظر: أنطوني غدنز، علم الاجتماع، ترجمة، فايز الصياغ، إصدار المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٥، ص ٨٢ وص ص ٨٨ – ٨٩.

المنكفئة على ذاتها، بل تحدد قيمتها في مدى قدرتها على الانفتاح والانتماء والاغتناء والإغناء وتكوين نظم فاعلة أكثر فأكثر ارتقاء.

فالمجتمع العربي يتمتع بإمكانات ومقومات ثقافية وجذور مشتركة وروابط ثقافية وتجانس في التجربة التاريخية والتكوين الاجتماعي، والمعطيات السياسية كافية جداً لتجعل منه نظاماً إقليمياً قادراً على العيش والتفاعل النشط مع النظم القارِّية والعالمية، إذا تم تعزيز هذه المقومات وتفعيلها.

إن أية سياسة مشتركة ومستقبلية للطفولة لا بد أن تركز على تعزيز مقومات المصير والانتماء المشترك والهوية العربية والإسلامية، بشكل مخطط أكثر من أي وقت مضى.

ولابد من الاستناد إلى هذه المقومات التاريخية والراهنة للهوية الوطنية وتفعيلها في توجه قصدي واعٍ.

إن الطفل بطبيعته باحث عن هوية اجتماعية وطنية وعن انتماء يبدأ بالأسرة ثم الحي والمدينة ثم المنطقة ثم البلد ثم الوطن ثم الإقليم، وصولاً إلى الأمة. وهو يحاول تعريف نفسه على كل من هذه الصُّعُد.

فكما أنه يحمل اسمًا وينتمي إلى أسرة، كذلك هو بحاجة إلى انتماء إلى جماعة ومجتمع وإلى وطن، ولا بد من جهود واضحة لتعزيز هذه الهوية من خلال بناء شبكة الانتماءات هذه. وهو بناء يتشكل بواسطة الثقافة ورموزها والأيام والمناسبات والشعائر والأعياد والتربية الوطنية والتربية الدينية والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والسياسة. كما أنه يتكون بواسطة نَمْذَجة الشخصية الوطنية من خلال الأبطال والقادة والرواد مستودع الاعتزاز الوطني.

وتُعد العلاقة بين الطابع القومي والتنشئة الاجتماعية أشبه بالعلاقة بين الأداة والنتاج النهائي، بمعنى أن التنشئة هي العملية التي يتم من خلالها تشكيل وضع الطابع القومي الذي يمثل النتاج النهائي لتلك التفاعلات الاجتماعية المعقدة، والتي تتم من خلال التنشئة الاجتماعية.

إن الانتماء هو أمر يتلقاه المرء عبر نموه من خلال تنشئته الاجتماعية. وكذلك التنشئة السياسية، التي تتمثل في تربية أبناء الأجيال الجديدة بوصفهم أعضاء في النظام الاجتماعي تربية سياسية. وهي العملية التي يكتسب المرء من خلالها تدريجيًّا انتماءَه للجماعة القومية التي تسمح له بالتعبير عن ذاته وقضاء مطالبه[٢٦].

والأسرة في مجتمعاتنا العربية لا تزال مهد التنشئة الاجتماعية والمدرسة الأولى للأجيال، ومثل هذه الوظائف التربوية والاجتماعية تعطي للأسرة قيمة تكاد تكون مقدسة في المعنى المجازي

(٢٦) قدري حفني، الطفل العربي والانتماء القومي، اللجنة الفنية الاستشارية للطفولة، مجلس وزراء الشئون الاجتماعية العرب، الأمانة العامة بجامعة الدول العربية، القاهرة ٢٠٠٢، ص ص ٦١ ـ ١٠٣.

للكلمة، وهو ما يجعلها أسرة، تقدس رسالتها بدون أن تنطوي على ذاتها، أو تفرط في مسئوليتها تجاه أفرادها، ومجتمعها، وذلك على الرغم من التطور السريع، والتحولات العميقة التي تغمر العالم اليوم.

إن طبيعة التحديات المطروحة تفترض وضع برامج، وسياسات متكاملة للعناية بالأسرة العربية، تسعى لتلبية حاجاتها المادية والمعنوية في نطاق رؤية ومشروع للتنمية، يتماهي معه الخيار الأخلاقي، بالخيار السياسي والاقتصادي وبما يساهم في رد الاعتبار للإنسان، وبناء العلاقات الاجتماعية التي تُذْكي في الفرد روح الانتماء للمجتمع.

إن دور الأسرة في تحقيق هذا المفهوم التنموي الحضاري ينبغي أن يتعاظم في المستقبل، وأن تظل الفضاء الأقدر على تحقيق الطموحات للتغييرات القادمة.

إن مواجهة تحديات المستقبل، إنما هو عمل يبدأ من الحاضر، وبما نعده اليوم من برامج ومشاريع للنهوض بالأسرة خاصة، حيث يمثل الاستثمار في الأسرة استثماراً مستقبلياً ناجحًا.

إن التنشئة المستقبلية في عصر العولمة، مدعوة، إذًا، إلى خيارات تتجاوز الانسياق التسليمي لها، في الوقت الذي تستفيد فيه من إيجابياتها وتعظم فرصها[٢٧].

وفى إطار هذه التغيرات يبرز سؤال مؤداه، ما طبيعة المستقبل الذي ينبغي أن نعد أطفالنا لمواجهته، بل وللإسهام في تشكيله؟ ويرى د. قدري حفني أن الإجابة عن مثل هذا السؤال الجوهري يسهم العلم فيها بمقدار، ولكن يسهم فيها كذلك الاختيار الاجتماعي الفكري للموقف من المستقبل.

إن المعرفة العلمية قد تتيح لنا قدراً لا يُستهان به من التنبؤ بالتطورات التكنولوجية في عالم الغد، وقد تتيح لنا كذلك تصوراً للتطورات المستقبلية في مجالات الموارد والبيئة والسكان، بل وقد تتيح لنا عدداً من الرؤى المستقبلية. ولكن هذا كله ومهما بلغت دقته لا يكفى وحده لتحديد طبيعة الأهداف الاجتماعية التي ننشدها خلال تنشئة أطفالنا، فنحن مطالبون إلى جانب هذا كله، بل وحتى قبله بأن نحدد موقفًا اجتماعيًّا فكريًّا من هذه التطورات المستقبلية المتوقعة، ومثل تلك الاختيارات الفكرية تتضمن بلا شك قدراً من المخاطرة، وتحمل مسئولية الاختيار.

إن التنشئة المستقبلية لأطفالنا تتطلب أيضًا، بالإضافة إلى ما تمت الإشارة إليه، معرفة الجوانب الآتية:

- الإحصاءات والمعلومات الدقيقة عن واقع الطفولة.

(٢٧) انظر لمزيد من التفصيل: مصطفى حجازي، علم النفس والعولمة. رؤية مستقبلية في التربية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ط١، ٢٠٠١، ص ص ١١٠-١١٢.

- إدراك أدوار مؤسسات التنشئة الاجتماعية المختلفة، ومتطلبات التنشئة المستقبلية.
- تحليل طبيعة الصراع القيمي الذي يشهده مجتمعنا في علاقته بالأوضاع العالمية والإقليمية والمحلية، والعمل على مواجهة وضع البدائل للقيم السلبية المتدفقة من جراء التغييرات، والتعاطي الفعال مع القيم الإيجابية.
- مراعاة المناخ السياسي والتغيرات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية المعتملة ليس فقط على الصعيد القطري أو القومي، وإنما كذلك أيضًا الإقليمي والدولي، وارتباط ذلك بمجمل التطلعات التي نريدها للطفل العربي.

إن تفاصيل ملامح المستقبل الذي ستعيش في ظله أجيالنا العربية ليست واضحة ومكتملة، ولكنها ليست مجهولة تمامًا أيضًا. فقد يبدو التنبؤ أصعب فيما يتعلق بالمستقبل القريب، ولكن ثمة ملامح منظورة لا نعتقد أنها ستتلاشى فجأة، وهذا يستدعينا وضع تصورات مبدئية للملامح الأساسية وفقًا للأولويات، وهنا يقترح قدري حفني بشأن أولويات العمل القادم التركيز على الآتي:

١) تدعيم الانتماء وتحمل الآخر المختلف.

٢) تدعيم قيمة التفكير العلمي والابتكارية.

بينما يرى مصطفى حجازي الأدوار المستقبلية كما يلي:

- الإسهام في إنتاج الاقتدار المعرفي.
- بناء ثقافة الإنجاز كنقيض لثقافة الاستهلاك.
- تشكُّل الحصانة النفسية ومتانة الشخصية.
- بناء منهجيات التفكير التحليلي التركيبي عند الأطفال والشباب[٢٨].

ويشير د. علي ليلة، بأنه من الضروري الاهتمام باللغة العربية لأنها لسان الثقافة، وأن تُفرد لها مساحة من الاهتمام في نظامنا التعليمي، وأيضًا في نظامنا الإعلامي. وارتباطًا بالمؤسسة التربوية يقترح د. على محافظة، في إطار عرضه لشروط نجاح النهضة العربية، أهمية إعادة النظر في أنظمة التربية والتعليم الحالية والبحث العلمي في جميع الأقطار العربية بهدف إصلاحها جذريًّا لتراعي التقدم العلمي والتكنولوجي في العالم، وكذلك اعتماد المنهجية العلمية في التفكير والعمل والتنمية[٢٩].

---

(٢٨) لمزيد من التفصيل انظر: قدري حفني، واقع الطفل العربي. . أولويات العمل القادمة، المجلس العربي للطفولة والتنمية، ورقة غير منشورة، ديسمبر ٢٠٠٣، ص ص ٤٢ – ٤٣. وأيضًا: د. مصطفى حجازي، رعاية الطفولة من أجل القرن الحادي والعشرين، المكتب التنفيذي بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ١٩٩٧، البحرين، ص ص ٦٨ – ٨٦.

(٢٩) لمزيد من التفصيل انظر: على ليلة، الوضع الثقافي العربي، مرجع سبقت الإشارة إليه، ص ص ٦٤ – ٧٥، وعلى محافظة، المشروع الحضاري العربي بين التراث والحداثة، حوارات في الفكر العربي المعاصر، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، ٢٠٠٢، ص ص ١٦٥ – ١٨٤.

ويضع الجوهري ملامح استراتيجية متكاملة لتأكيد قيمة الانتماء، والتي يمكن أن تساهم فيها كل وسائط التنشئة، وتعمل على تنفيذها مؤسسات المجتمع، من خلال الآتي:

- تأكيد القيم المجتمعية التي تعمل على تحقيق الانسجام والوئام في المجتمع من خلال الأسرة والمؤسسة التعليمية والإعلامية والخطاب السياسي والخطاب الديني، وكذا من خلال مؤسسات المجتمع المدني.
- تأكيد مبدأ العدالة والمساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات، واحترام التعدد الثقافي والاجتماعي للأقليات والإثنيات المختلفة الموجودة في العالم العربي.
- تأكيد عملية القدوة الصالحة في كل مواقع العمل، ويستدعى ذلك التدقيق في اختيار القيادات في الوضع المناسب.
- وضع التشريعات اللازمة التي تضمن وتؤكد الانتماء والمشاركة والمحافظة على المال العام وصيانته.
- العمل على معالجة الخلل والفجوات في آليات توزيع الدخل والفجوات بين الريف والحضر.
- تأكيد دور الأسرة وضرورة قيامها بهذا الدور في غرس القيم الإيجابية وفى مقدمتها قيمة الانتماء باعتبار الأسرة أهم وأولى المؤسسات في عملية التنشئة.
- تأكيد دور المؤسسة التعليمية في غرس الانتماء وتقويته لدى الطلاب من خلال المناهج والمحتويات والأنشطة والممارسات الطلابية.
- تأكيد دور المؤسسة الإعلامية في تعميق الانتماء والولاء من خلال وسائل الإعلام المختلفة، مع إتاحة فرصة واسعة للتيارات الفكرية والسياسية المختلفة للتعبير عن آرائها وبرامجها وأفكارها المنطوية في إطار المصلحة الوطنية.
- تأكيد دور المؤسسة الدينية في تعميق الانتماء إلى الوطن.
- ضرورة توفير الاحتياجات الأساسية المتمثلة في الغذاء والكساء والصحة والتعليم وفرص العمل وحرية التعبير، ووضعها في أولويات خطط التنمية.
- وضع الضمانات التي تؤكد المساواة وعدم التفرقة بين المنتمين إلى مختلف الاتجاهات السياسية والثقافية والاجتماعية والدينية.
- ضرورة قيام الأحزاب السياسية والنقابات ومؤسسات المجتمع المدني، بدورها في التثقيف السياسي والاجتماعي وغرس القيم الوطنية.
- العمل على زيادة مشاركة المواطنين سياسيًّا واجتماعيًّا بكل الوسائل لتكون مشاركة فعلية وفعالة.
- العمل على تفعيل دور المؤسسات في المجتمع، وأن تكون القرارات من خلال المؤسسات لا الأفراد[٣٠].

(٣٠) عبد الهادي الجوهري، مرجع سبقت الإشارة إليه، ص ص ١٥٢ ـ ١٥٤.

أما بشأن اللغة باعتبارها مفتاح الهوية فيؤكد د. نبيل علي، ضرورة أن نسعى إلى تأصيل الوضع العالمي للغة العربية، من خلال الدراسات المقارنة والتقابلية، واستغلال التنوع الثقافي على مدى العالم الإسلامي لإغناء الثقافة العربية والثقافة الإسلامية، وزيادة الترابط بين شعوب الأمة الإسلامية [٣١].

إن الاهتمام باللغة العربية باعتبارها محور الثقافة العربية يتطلب تطوير اللغة وجعلها ترقى إلى مستوى استيعاب مستجدات العلوم والآداب والتكنولوجيات المتطورة في مختلف المجالات، وينبغي أن تتركز في هذه الاهتمامات مجمل السياسات والبرامج والإجراءات المتبعة للارتقاء بالطفل والإنسان العربي، سواء في الدول العربية أو في المهجر.

كما إن هذه الملامح العامة لا بد أن تُترجم إلى خطط وبرامج نوعية وقطاعية، شريطة حدوث تنسيق وتعاون وشمول وتكامل بين المؤسسات المختلفة تحقيقًا للهدف الأسمى، وهو الانتماء الوطني.

وفى ختام هذه الورقة يمكنني القول إن التنشئة المستقبلية للطفل العربي تحتاج إلى منهج متكامل ومشاركة مختلف العلوم وفروعها المتخصصة، والمتعاملين مع الأطفال والشباب كافة، مع الأخذ في الاعتبار أن مشاركة الأطفال والشباب أنفسهم في تحديد الاحتياجات والاختيارات والتنبؤات ستساعد هي أيضًا لرسم ملامح المستقبل.

توصيات:

ترى الورقة التركيز على الآتي:

- أن تعتمد أي سياسة مشتركة مستقبلية للطفولة على تعزيز مُقوِّمات المصير والانتماء المشترك والهوية، والتركيز على اللغة العربية دون إلغاء اللغات واللهجات الأخرى.
- تنمية المهارات الشخصية والذهنية للأطفال، الضرورية للتعامل مع التحولات المستقبلية عن طريق الثقافة العامة، ومهارات التفكير العلمي وحل المشكلات والمرونة الذهنية في التفاعل مع المتغيرات، واكتساب القدرة على اتخاذ القرار المناسب في المواقف المختلفة.
- تنمية قيم تكريم الإنسان والحرية والعدل والمساواة والتسامح ونبذ التعصب، وتعزيز قيم الانتماء والولاء والانفتاح الإنساني.
- اعتماد منظور تقدمي للعولمة باعتبارها تآخيًا بين الشعوب من ناحية وبحثًا عن آليات سياسية عالمية جديدة بديلة ومكملة لنظام الدول في الوقت نفسه، بحيث يقدم هذا المنظور أُطُرًا لمفاهيم يمكن استنباطها من جانب الشعوب نفسها محل التعصب العرقي يقوم على السِّلْم والعدالة والتنوع والوحدة.

(٣١) نبيل علي، مرجع سبقت الإشارة إليه، ص ٤٣٧.

المراجع:

- أحمد أبو زيد، حضارة اللغة، في مجلة تحديات ثقافية، العدد ٢٦، خريف ٢٠٠٦، القاهرة.
- أحمد مجدي حجازي، العولمة وآليات التهميش، الثقافة العربية، العولمة والهوية الثقافية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨
- إسماعيل صبري عبد الله، الكوكبة أساس الظاهرة الاقتصادي الاجتماعي، في العولمة والهوية الثقافية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨.
- الطيب تيزيني، الواقع العربي وتحديات الألفية الثالثة، في حوارات في الفكر العربي المعاصر المجلد (٣)، مجموعة باحثين، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، ٢٠٠١.
- أنطوني غيدنز، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصياغ، إصدار المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٥.
- برهان غليون، سمير أمين، ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، حوارات لقرن جديد، دار الفكر، دمشق ٢٠٠٠.
- تركي الحمد، نحو إطار معرفي جديد للثقافة العربية، في مستقبل الثقافة العربية، مؤتمر مستقبل الثقافة العربية، ١١ – ١٤ مايو ١٩٩٧، مكتبة القاهرة.
- تركي الحمد، هوية بلا هوية، ثمن العولمة، العولمة والهوية الثقافية، سلسلة أبحاث المؤتمرات ١٢ ـ ١٦ / ٤/ ١٩٩٨ المجلد (٧)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨.
- ثروت إسحق، تحديات الهوية الثقافية للأطفال، في وثائق مؤتمر الطفل العربي في مهب التأثيرات الثقافية المختلفة، المجلس العربي للطفولة والتنمية، ٢٥ – ٢٧ سبتمبر ٢٠٠٥، مكتبة الإسكندرية.
- جمال عليان، الحفاظ على التراث الثقافي، نحو مدرسة عربية للحفاظ على التراث وإدارته، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد (٣٢٢)، مطابع السياسة، الكويت، ديسمبر ٢٠٠٥.
- جمعة سيد يوسف، سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، كتاب عالم المعرفة، العدد ١٤٥، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مطابع السياسة، الكويت، يناير ١٩٩٠.
- جلبير غرانفيوم، اللغة والهوية والثقافة الوطنية في المغرب العربي، موقع www.mokarabat.com.
- حليم بركات، المجتمع العربي في القرن العشرين. . بحث متغيرات الأحوال والعلاقات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٠.
- حيدر إبراهيم على، العولمة وجدل الهوية، مركز الدراسات السودانية، سلسلة الثقافة السياسية (١٣)، ط١، القاهرة ٢٠٠١.

- سعد الدين إبراهيم، نحو دراسة سوسيولوجية للوحدة العربية، الأقليات في العالم العربي، في قضايا عربية، السنة الثالثة، الأعداد (١ – ٦) أبريل ـ سبتمبر ١٩٧٦ .
- سعد الدين إبراهيم، التعصب والتحدي الجديد للتربية في الوطن العربي، في: الأطفال والتعصب والتربية، الكتاب السنوي السادس، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الكويت، ١٩٨٩ .
- عبد الهادي الجوهري، العولمة والانتماء الوطني (حالة مصر) في العولمة وأثرها في المجتمع والدولة، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، ٢٠٠٢ .
- عفت الشرقاوي، المصادر الفكرية لمفهوم الهوية لدى رواد الفكر القومي العربي، في الهوية القومية والأدب العربي المعاصر، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٩٩ .
- علي أسعد وطفه، إشكالية الهوية والانتماء في المجتمعات العربية المعاصرة، في مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد (٢٨٢)، بيروت، أغسطس ٢٠٠٠ .
- علي حرب، صدمة العولمة في خطاب النخبة حول الهوية، في العولمة والهوية الثقافية، سلسلة أبحاث المؤتمرات ١٢ـ١٦/ ٤/ ١٩٩٨، المجلد(٧)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨ .
- علي ليلة، الوضع الثقافي العربي، منتدى الإصلاح العربي، مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٦ .
- علي محافظة، شروط النهضة العربية، في المشروع الحضاري العربي بين التراث والحداثة، حوارات في الفكر العربي المعاصر، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، ٢٠٠٢، .
- فالح عبد الجبار، معنى العولمة، في العولمة والهوية الثقافية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨ .
- فتحي المسكيني، الهوية والزمان: تأويلات فينولوجية لمسألة النحن، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠١ .
- قدري حفني، واقع الطفل العربي وأولويات العمل القادمة، المجلس العربي للطفولة والتنمية، بحث غير منشور، القاهرة، ديسمبر ٢٠٠٣ .
- قدري حفني، الطفل العربي والانتماء القومي، اللجنة الفنية الاستشارية للطفولة، مجلس وزراء الشئون الاجتماعية العرب، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، القاهرة، ٢٠٠٢ .
- مجدي عبد الحافظ، الهوية مفهوم في طور التشكل، في العوله والهوية الثقافية، سلسله أبحاث المؤتمرات(٧) المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨ .
- محمد محفوظ، العولمة وتحولات العالم. . إشكالية التنمية في زمن العولمة وصراع الثقافات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، مكتبة النيل والفرات، ٢٠٠٣ .
- مصطفى حجازي، ثقافة الطفل العربي بين التغريب والأصالة (سلسلة ثقافتنا القومية)، العدد (٢)، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، ١٩٨٨ .

- مصطفى حجازي، رعاية الطفولة من أجل القرن الحادي والعشرين، سلسلة الدراسات الاجتماعية والعمالية، المكتب التنفيذي لمجلس وزراء الشئون الاجتماعية بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، المنامة، البحرين، ١٩٩٧.
- ميشيل توماسيللو، ترجمة شوقي جلال، الثقافة والمعرفة البشرية، كتاب عام المعرفة، العدد (٣٢٨)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مطابع المجموعة الدولية، الكويت، يونيو ٢٠٠٦.
- نبيل علي، اللغة العربية.. قديمًا وحديثًا: فجوة في العقل اللغوي، في مجلة العربي، مطابع الأهرام التجارية، العدد (٥٧٦)، نوفمبر ٢٠٠٦، الكويت.
- نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات.. رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، كتاب عالم المعرفة، العدد (٢٧٦)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مطابع السياسة، ديسمبر ٢٠٠١، الكويت.
- هادى نعمان الهيتى، إشكالية المستقبل في الوعي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١ بيروت، ٢٠٠٣.
- ياسر سليمان، اللغة العربية والهوية القومية، صفحة المعرفة في الجزيرة نت www.aljazeera.net.

obeikandl.com